

ثورة الطبيعة وثورة المجتمع

للككتور محمد يحيى الهاشمي

كم من تشابه بين حوادث الطبيعة وحوادث المجتمع ! وهل المجتمع إلا جزء من عالم الطبيعة وخليفة من المخلوقات المتعددة التي تشكل هذا العالم الكبير الواضح بظواهره والظن بأسراره ومعنياته ؟ وكما يسود التطور في نظام الطبيعة على اختلاف أشكالها وأنواعها ، يسود في نظام المجتمع والهيئات البشرية هذا القانون . هكذا نجد انتقالاً وتصدداً في سلم الرق خطوة خطوة ودرجة فدرجة . أما الطريق في الصالحين بعيد ، وليس من هدف ولا غاية ، وما السكان الذي نظنه بنهاية المطاف ماهر في الحقيقة إلا مرحلة انتقالية إلى مرحلة أخرى . الطبيعة تمشي والمجتمع يسير ، لا يعرفان الوقوف ولا السكون ولا الراحة ولا الاستقرار ، وما الاستقرار الظاهري إلا دور يهيئ إلى دور

وأخبرتنا أن زوجها قد بلغ من العمر أرذله ، وبحسب قانون الطبيعة لن يعيش طويلاً ، ولترى عظم حباله أنقذت ما يحبه المسكين أكثر من حياته . وكانت الأخرى تحمل ابنها على ظهرها ، وقيل لنا إنه من أعظم التجار الأشرار في المدينة ، ولكن على مثل هذا الحنان جبلت الأمهات الرقيقات ، فقد تركت خلفها أسرة عامرة بالأمل ومؤلفة من زوج وبنين وبنات لأجل هذا المخلوق الشرير .

ولو تركت لقلبي الشنان أن يسجل ما رأيت في هذا الحلم التريب لما انتهيت من السرد والوصف ، فقد امتلأ السكان حول برزم مربوطة وحرائر مشجرة ومطرزات وعشرة آلاف من مواد أخرى كافية لأن تملأ شارعاً بمخازن مملوءة بالهدى . وأقبلت إحدى السيدات تحمل زوجها الذي لم يكن ثقيلاً وتحمل في الوقت نفسه علاوة على ذلك ربطة كبيرة من الأشرطة الحريرية المولندية ، وعندما ضاقت بحملها ووجدت أنها لا تستطيع الاحتفاظ بكليهما أسقطت بهما الصالح وحات الأشرطة وتابست سيرهما . وبالاختصار لم أجد سوى زوج واحد مع هذه الأمتعة وكان إسكافياً نشيطاً . لقد كان يرقى ويهزم رجله وهو عمول

آخر ؛ فكل ما يقع عليه بصري أو تتركه بصيرتنا ، يسطو عليه دوماً ناموس الجربان والتفكير الدائم .

إن هذه التفيرات البطيئة جداً تدق حتى عن فهم الذكي ، ولكن لدى النظرة العميقة وتبع الحوادث الطويلة نجد كل ما على سطح الأرض تابعاً للتغير والتبدل ، فلا شيء يبق على حاله لأصل فالجبال التي يضرب بها النزل في الثبوت لا تدق مكانها ، بل بتعاقب الأحقاب البطيئة تتزلزل وتصبح سهولاً وترتفع السهول فتصبح وعاداً فتجأداً فهضاباً إلى أن تكون جبلاً شاهقة تتخللها الوديان السحيقة ، وكثيراً ما نجف بعض المناطق البحرية ، فتصبح برأ والبحر يتحول إلى بحر ، وهكذا فإن التبدلات الجزئية التي تظهر لتناظر السطح كشيء ثانٍ لا قيمة له ، تكون بتعاقب ملايين السنين انقلاباً خطيراً يدهش الأنظار ، ويكاد لا يصدق الإنسان ما كانت عليه بعض المرتفعات الشاهقة في الماضي لولا الحيوانات البحرية التي يادت وتركزت معالها بين طيات الأحجار .

قياساً على مايننا فإن الأمم تتغير وتتبدل ، وتأثير الأفكار المادية الرزينة تنتقل من طور إلى طور وذلك بتعاقب الأجيال

على أكتاف زوجته ، وقيل لي بعدئذ إن يوماً من أيام حياتها لم يمر دون أن يهاقها بالضرب الشديد .

ولن أستطيع إتمام هذه الرسالة يا صديقي المحرور من غير أن أخبرك من خاطر عجيب مررت في رؤي . فقد رأيت كما خيل لي عشرات النساء متهمكات في صحب وجسل واحد لم أتبينه أول وهلة حتى اقترب مني وبانت ملاحة فإذا به أنت . وقد مرحت أن ذلك لأجل انتاجك الأدبي ، وليس لشخصك ، على شرط أن تسترق تحرير السبكاتور . فإذا وجدت في هذا الحلم ما يلائمك فهو تحت تصرفك يا عزيزي المحرور ، وأنا صديقك في النوم واليقظة .

ويل هولي كورب

سيرى السيدات كما خبرتهن كثيراً ، أن (ويل) رجل من الطراز القديم في التهمك والمجون في المدينة ، وهو هنا يظهر مواهبه بالتهمك على الزواج كرجل جرب حظه مزاراً عددة في هذا المزار وتلب . وعلى كل حال لم أستطع إعمال رسالته لأن القصة الحقيقية التي بين يديها رسالته مما يرفع رأس المرأة عالياً ، وأنه في سبيل إيمانهم قد جنح به النطق إلى الرؤى والتخيل .

ساهرة التفهيري

(جناد)

عميق في الأرض، تنبث عن ثوب للتجدد واشتياق كامن في النفوس إلى الحياة . ولا يمد من أبنائها إلا من نال لها وقد رقيتها . أما من لم يبق إلا للفناء في قرارة نفسه على رأى بعض الأدياء المعاصرين فراغ رهيب وصدى فناء صارخ بصوت القبور ، ونشاط أجوف ينبثق القبح ، ناظم على الوجود . ويقاس الناس في عمل كل إصلاح بالنسبة إلى إيجابيتهم وأهليتهم للبناء ومساعدتهم في الفوضى . المدسرون كثيرون وأما البناؤون قليلون . ودعاة الفوضى لا يحصى لهم عدد ، أما الإيجابى فطريقه طريق الحياة ولو جاءت الحياة من طريق التدمير .

في النهضة المنبثقة عن الحياة النابضة انطلاق وثاب ونفس ضاقت بما فيها فانفجرت في قوة مكثسحة بناءة تتجه نحو الخير والجمال ، وندوس في سبيل بلوغها بقايا الفساد القائمة . شتان بين من يهدم لهدم وبين من يهدم لينبى ، في أحشاء الأول فناء وفي أحشاء الثانى حياة وارتقاء . ينور الأول ليحطم ، فلن يلبث أن يبتلع نفسه . أما السامى للبناء ففي أحشائه امتلاء دفن ، فيمطر عطاء سخياً ، ولا تكون الحياة إلا حيث يكون السطاء .

في انطلاق البراكين مواد هامة لبناء القشرة الأرضية ، حتى أن دورة الماء لا تقف عند سطح الأرض ، بل ثبت أن الحياة الإندفاعية الباطنية لتشارك في الثورة المائية ، وفي الأحقاب التى كان فيها اندفاع البراكين على أشده كانت المياه أشد غزارة . في اندفاع الينابيع الفواررة إرتواء للأرض وللكتائن الحية على سطحها ، وفي القيضانات الطاغية سداد لها لزمام قوة الانبثاق فيها ، رغم ما تجرّه تلك السيول الطاغية على الحقول والبساتين والنازل من الأضرار والتخريب . حتى أن في الزلازل الخفيفة قائدة في تشكيل شكل الأرض .

إن في النهضة الاجتماعية أيضاً والثورات الفكرية أضرارا جزئية لا يخلو منها انقلاب من الانقلابات ، ولكن الحوادث تترامى لنا عكرة إذا نظرنا إليها بمنظار أمانيتنا ، أما إذا نظرنا إليها بمنظار السلحة العامة والغير الشامل ، عند ذلك يتلاشى من نفوسنا حب القات والآلة ونترك أموراً خافية عنا .

قد يكون في النور الشديد الظل المديد ، وجزر الانقلاب العميق هو في النفس ، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

(ينباد)

محمد يحيى الهاشمي

والمصور ، ولولا مادونه لسا التاريخ في قرون مضت ، أو بعض الآثار الباقية عن الأمم الخالية ، لما عرفنا ما كانت عليه الشعوب والحضارات الماضية .

نعم إن بعض الأمم قد نذرت عما كانت عليه من قبل ، كالرومان الذين كانوا يحملون مشعل العلم والفن ، أو كالرومان الذين شيّدوا الممالك وأوجدوا التشريع ، أو كالأمة العربية التى أخذت عن الأمم السالفة ما أخذت وأبدعت من ذاتها ما أبدعت وساهمت في تشييد صرح المدنية الحاضرة ، ولكننا إذا اعتبرنا البشرية بأجمعها أسرة واحدة ورثت كل أمة عن الأخرى ما ورثت فنجد ذلك ميل إلى الاعتقاد بالتقدم الدائم والتطور المستمر .

هذا التطور البطي هو من سنة الكون ، ولكن بجانب ذلك نشاهد في عالم الطبيعة وعالم المجتمع من انقلاب فجائي واندفاع آتى يدك الأرض دكا ويغير معالمها . إن هذه القضية تفضيها الطبيعة في انفجار البركان وفي الزلازل الأرضى يذهب تخميتها في كثير من الأحيان كثير من الكائنات الحية . وفي عالم الاجتماع نشاهد ذلك أيضاً في الانقلابات الاجتماعية التى تكون عند الاختراعات العظيمة أو عند اليقظة الفكرية . ولعل حاجتنا في هذا العصر الذى قطعت فيه أوروبا في سبيل الرق والتقدم ما قطعت من الخطوات الراسية ، إلى انقلاب في جميع طرز حياتنا لأعظم من أى عصر ، لأن بلاد الغرب قطعت تلك المراحل في قرون عديدة .

أما نحن ، فإن حاجتنا أن نأخذ النتائج كما هي ، ومن بعد ذلك نسمى في الإبداع وإظهار قابليتنا . فإذا أردنا أن ننتظر الزمن وتبدلاته البطيئة فلن نلحق بركاب الغرب . عند ذلك نبق متأخرين عن الأمم الراقية أبد الآبدين . فالأرض تنور لتخرج ما في جوفها من لظى مستمر ، والمجتمع ينور ليطلق ما في قلبه من نار متأججة مبدلا بها معالم حياته . وكم من تشابه بين الطبيعة والمجتمع . تندفع المياه إلى النيران المستمرة في جوف الأرض فتشكل الأبحر وتتراكم إلى أن تنطلق بقوة وعنف ، وكذلك تتجمع الأفكار في الأمانة إلى أن تنطلق بقوة فتاة فتدك العالم القديمة لتبنى فوق أبقاعها مالا جديداً على أساس عميق . وما أعمق غور الإنسان ، وما أشد حاجته إلى أن يبني بناء المجد الشامخ على أساس ثابت ، وكلما سمت الشجرة في السماء تحتاج إلى جذر